

البلاغة والأسلوبية بين التباين والتلاؤم

Rhetoric and Stylistics: Exploring similarities and Differences

د. إكرام ملياني*

ikram.ikoula@gmail.com جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر).

تاريخ الاستلام: 2024-11-21 تاريخ القبول: 2024-12-12 تاريخ النشر: 2024-12-19

ملخص البحث

تُعَدُّ البلاغة والأسلوبية من أبرز العلوم التي تركز على دراسة اللغة والنصوص الأدبية، حيث تركز البلاغة على استخدام اللغة بشكل فعال لتحقيق التأثير المطلوب، بينما تهتم الأسلوبية بتحليل الأسلوب المستخدم في النصوص الأدبية وفهم كيفية تأثيره على العملية التأويلية.

لذلك حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية استقراء مفهوم علم البلاغة والأسلوبية، والبحث عن دور كل منهما في دراسة النصوص الأدبية وتأثيرهما على فهم اللغة، للتوصل إلى العلاقة الجوهرية القائمة بينهما مشيرين بذلك إلى أهم نقاط التباين والتلاؤم بينهما.

الكلمات مفتاحية: الأسلوبية، البلاغة، العدول، الانزياح، الفصاحة، الأدب، الخطاب، النص.

Abstract:

Rhetoric and stylistics are amongst the most prominent arts that delve into the nuances of language and literary texts alike. As a matter of fact, stylistics as a field of study examines how the writer's stylistic devices shape the reader's understanding and interpretation of a work. It also seeks to uncover the underlying meanings and effects conveyed through the writer's linguistic choices and devices. Rhetoric, on the other hand, is concerned with the effective use of words. In so doing, rhetoric focuses on the strategic power of language, unveiling how writers effectively convey some hidden messages to achieve their desired goals. This study is an attempt to elucidate the interconnectedness between both fields: rhetoric and stylistics by examining their respective roles in analysing literary texts. The study also examines how each field contributes to one's comprehension of language by exploring the relationship between these two fields, key areas of overlap and difference will be highlighted.

Keywords: Rhetoric, Deviation, Displacement, Eloquence, Literature, Discourse, Text

*د. المؤلف المرسل: د. ملياني إكرام

حظيت اللغة باهتمام العلماء منذ الحضارات القديمة، لاستجلاء مكانها وجمالياتها والأثر الذي تضيفه على مستعملها ومتلقيها، كونها اللبنة الأساس للتواصل والتعبير عن المشاعر بألفاظ رقيقة يستأنس لها القلب لسلاستها وحسن رصف أجزاءها ومعانيها، فاللسان الفصيح البليغ يسهل تلقيه لبلوغ المقاصد.

والبلاغة والأسلوبية من بين أهم العلوم التي نشأت لاستجلاء جمالية النص القرآني، والبرهنة على سمات تفرده بجودة مقاصده وبلاغة معانيه.

وتقتضي الضرورة المنهجية منا أن نعرّج على مفهومي البلاغة والأسلوبية في وضعيهما اللغوي والاصطلاحي، لاستجلاء المرجعيات اللغوية والمعرفية والثقافية والفكرية التي تؤطرهما، والكشف عن العمق المعرفي والفلسفي المتضمن فيهما، ويتأتى ذلك بالرجوع إلى المعاجم العربية لضبط المفهومين ضبطاً دقيقاً مع تحديد العلاقة بينهما دفعا للبس والاضطراب.

أولاً. مفهوم البلاغة:

1- في اللغة:

وردت لفظة البلاغة في المعاجم العربية بمعاني جمّة أهمها ما ورد في معجم القاموس المحيط في مادة بلغ: "بَلَّغَ المكانَ بَلَوْغًا وَصَلَ إِلَيْهِ أَوْ شَارَفَ عَلَيْهِ، وَشَيْءٌ بَالِغٌ جَيِّدٌ، وَقَدْ بَلَغَ مَبْلَغًا، الْبَلِيغُ الْفَصِيحُ يَبْلُغُ بعبارة كنه ضميره، الإبلاغ والتبليغ، الإيصال"¹ المتأمل في قول الفيروزابادي يدرك أنّ البلاغة كل ما ينماز بالجودة والفصاحة والبيان، كما تسعى لبلوغ الدلالة المقصودة بوضوح كونها تنأى عن الغموض الذي يعيق عملية الوصول للغاية المرجوة من الكلام والمعنى المبتغى منه.

ونجدها في معجم مقاييس اللغة خاصية ينماز بها الفصيح البليغ، وكذا بمعنى بلوغ الغاية²، وبالرجوع إلى معجم تاج العروس من مادة (بلغ) تُذكر على الشيء جيد³، ثم نلغي محمد مرتضى من خلال معجمه أرفق لمفهوم مصطلح البلاغة المواصفات التي يجب أن تتوفر في الشخص البليغ من صواب في المضامين، وتطابق المعنى مع القصديّة، والمصادقية⁴

ما نستشفه من خلال تأملنا في معاني مادة (ب ل غ) في المعاجم العربيّة، أنّ البلاغة رغم تشعب تعاريفها إلاّ أنّها لا تخرج عن كونها الوصول والانتهاء لبلوغ غاية ما، وتعني أيضا فصاحة اللسان

وجودته، فبالتالي البلاغة تهذب الكلام وتضفي عليه جمالية خاصة بحسن رصف الألفاظ والمعاني لبلوغ المقاصد إلى قلب المتلقي لقبولها بدون تكلف.

وبالعودة إلى المعاجم العربية نجد أن مصطلح البلاغة يقابله **Rhetotic** ومعناه يوافق ماورد في المعاجم العربية من كونه منهج يمسّ خاصية تلازم الإنسان وهي الكلام، ويُقصد بها كذلك جودة التعبير والدقة في ترتيب المعاني.

2- في الاصطلاح:

أولى البلاغيون والنقاد العرب القدامى عنايتهم بمصطلح البلاغة وتجلى ذلك في استحواذ قضايا البلاغة على معظم مصنفاتهم العربيّة التراثية، كما انصبّ اجتهاد علماء العرب القدامى على إيجاد تعريف شامل لتبيان الدلالة الحقيقية لمصطلح البلاغة، وتبيّن أنّ هذا الأخير أُستعمل من قبل القدامى للدلالة على معنيين اثنين:

أ. **المعنى الأول:** هو ما يهتم بوصف الكلام والمتكلم دون غيرهما، وضبط ما يلزمهما لبلوغ المقاصد بغية التأثير في المتلقين لجذب قلوبهم. فنجد من بينهم: علي بن أبي طالب (ت40) وعرف مصطلح البلاغة بقوله: "إفصاح قول عن حكمة مستغلقة وإبانة عن مشكل"، وقال أيضا رضي الله عنه: "البلاغة إيضاح الملتبسات... بأسهل ما يكون من العبارات"⁵ ما أورده علي بن أبي طالب (ت40) يعتبر بمثابة التعريف الشامل لمصطلح البلاغة، فكل ما ذكر بعده بهذا الخصوص لا يكاد يتعدى هذا المفهوم في جوهره.

فالتأمل في قول علي بن أبي طالب (ت40) يدرك أنّ لهذا المفهوم بعدين اثنين:

- الأول يتمثل في الإفصاح الذي يفتح المغالق ويحلّ الإشكاليات، فالإفصاح هو التبليغ والكشف عمّا يدور في الأذهان من تصورات وأفكار والتعبير عنها بألفاظ جزلة سلسلة متراسة لتبيان المراد وفهم المعاني لفتح كل ما استغلق واستصعب فهمه.

- أمّا البعد الثاني يتمثل في الإيضاح الذي تترتب عليه السهولة، وذلك يكون بحسن تحيّر الألفاظ وحسن رصفها بائتلاف المعاني والعبارات بدون تكلف ولا حشو كون البلاغة تقرب المعنى البعيد وتؤنس القلوب المستوحشة، بحيث إذا سمعت الألفاظ عُرفت أقصى المعاني. وهذا ما تتبناه كل التعاريف التي جاءت بعده حول الإفصاح والإبلاغ.

وتبنى خليل بن أحمد الفراهدي في تعريفه للبلاغة نفس دلالة علي بن أبي طالب فقال: "ما قَرُبَ طرفاه، وبُعُدَ منتهاه"، "كل ما أدّى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة"⁶، ويقول البحترى: "خير الكلام ما قلَّ وجلَّ ودلَّ ولم يمل"، فما قُدم من أقوال دلالة على أنّ لفظة البلاغة استعملت لوصف الكلام وتمييز جيده من رديئه.

ب. المعنى الثاني: فهو للدلالة على البلاغة بوصفها علماً وفناً ومنهجاً قائماً بذاته يهتم بقضية ملازمة للإنسان وهي الكلام.

فنلفي الجاحظ (ت 255 هـ) من بين البلاغيين الذين أسهبوا الحديث حول قضية البلاغة عامة وقدم لنا في كتابه البيان والتبيين مختلف تصورات العرب لعلم البلاغة ومن بينهم تفسير ابن المقفع⁷ حينما سُئل عن مفهوم البلاغة فقال: "البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة"⁸.

المتفحص لكتاب الجاحظ (ت 255 هـ) يدرك أنّ صاحب البيان والتبيين استحسّن مفهومًا واحدًا رغم تعدد التعريفات، كونه الوحيد الذي يمكننا من استيعاب كنه البلاغة فيقول: "وقال بعضهم وهو أحسن ما اجتبيته ودونته، لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة، حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"⁹ استحسّن الجاحظ هذا التعريف كونه يمثّل ميوله لحسن الصياغة والصنعة واهتمامه بالنظم وما يحمله من حسن النسخ والتأليف، وتحقيق ذلك يكون بإعطاء الكلام حقه من البلاغة والوضوح.

وما نستشفه من قول الجاحظ أنّه جمع بين البلاغة والفصاحة كون هذه الأخيرة لا تخرج عن معنى جودة اللسان وبيانه، وعن إعطاء المعنى حظه من اللفظ وإعطاء اللفظ حقه من المعنى¹⁰ وهذه الدلالة ليست ببعيدة عمّا نلّفه عند البلاغيين في حديثهم عن البلاغة أنّها تزيّن للمعاني بحسن اختيار الألفاظ لتقبلها الأذهان رغبة في سرعة استجابتها، أمّا فساد البيان فيكون بترك تحيّر الألفاظ والمعاني.

وتبنى المبرد¹¹ (ت 286 هـ) والسكاكي¹² (ت 395 هـ) نفس رأي الجاحظ حينما جعلوا البلاغة ملازمة للنظم وحسن النسخ والتصوير. ونلّفني صاحب الإيضاح (ت 739 هـ) قد أسهب الحديث عن البلاغة في مواضع مختلفة من كتابه فاعتبر: "البلاغة في الكلام مطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته... فإنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام والإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه،

ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب... فالبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب.¹³

التأمل في قول القزويني (ت739 هـ) يدرك أنه قدّم لنا تعريفا شاملا للبلاغة وذيلته بتوضيحات بغية تقريب مفهوم البلاغة، فجعل للكلام درجات متباينة تتباين باختلاف حال المتلقي، لأنّ المقام الأول يخالف المقام الثاني، وهذا ما يلزم الكاتب على الاعتناء بألفاظه ومعانيه لتناسب مستوى المتلقي، فالشخص الذكي تتواصل معه بألفاظ زجلة وعبارات لطيفة ومعاني مُحكمة دقيقة خفية، وهذا ما لا يناسب الشخص الغبي كونه لن يتمكن من فهم واستيعاب الخطاب الموجّه له لمحدودية معارفه وكفاءاته، وهذا الإلزام ما يجعل من الكاتب بليغا وفصيحا كونه ينتج وينسج نصّه بحسب ما يوافق أفق توقع المتلقي.

ومن المؤكد أنّ الجودة في حسن النسج والرصف نستخلصها من كلام الله تعالى في قرآنه الكريم ونذكر مثلا لمطابقة الكلام لمقتضى الحال حينما يكون مقام القصر يباين مقام خلافة: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} ¹⁴ فالله تعالى كان يحسن تخيّر الوحي والكلام ليتناسب مع أحوال المخاطبين، فنجد في هذه الآية الكريمة اعتمد على القصر لما يقتضيه المقام فنجد أنه أثبت العلم له لوحده، ونفاه عما سواه.

وموافقة الكلام لمقتضى الحال هو ما نجده عند عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ) بنظرية النّظم كونها تنهض على حسن رصف الكلم والمعاني وإيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ مما يكسبها قوة وجمالا لبلوغ المقاصد المرجوة وقبولها من طرف المتلقي لأنّها تناسب حاله ومقامه، فلكلّ مقام مقال.

وفي ضوء ما سبق يمكن القول إنّ البحث في إشكالية مفهوم البلاغة في الدراسات اللّغوية العربية، يستدعي قدرا أوفر من النّظر والدّراسة لكثرة التعريفات واتساعها، وتعدّد الآراء والاتجاهات حولها، فكل يعرفها حسب ميولاته فمنهم من يؤكد على اللفظ والمعنى ومنهم من يهتم بعنصر التأثير في

السامع والحقيقة أن التعريف الشامل الذي قدّمه شيخ البلاغة الجرجاني من خلال نظريته السائدة النظم ينهض ويشمل جميع هذه الأمور.

ثانياً. مفهوم الأسلوبية:

1- لغة:

المتصفح للمعاجم العربية يدرك بيسر أنّه لم يرد فيها مصطلح الأسلوبية ولكنه مصدر صناعي من الأسلوب، ونجدها في معجم لسان العرب: "بمعنى السطر من النخيل، وكلُّ طريق ممتد فهو أسلوبٌ، والأسلوب الطّريق والوجه والمذهب، والأسلوب الفنّ".¹⁵

ونجد نفس المعاني في معجم تاج العروس إلّا أنّه ذكر: "الأسلوب الوجه والمذهب يقال هم في أسلوب سوء أو في أسلوب خير ويجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه: طريقته وكلامه على أساليب حسنة"¹⁶

تتفق المعاجم العربية كلّها على أنّ الأسلوب فنّ ونهج ينتهجه الكاتب ليتفنّن في استعمال اللّغة أثناء عملية التّأليف بغية استجلاء السمّات الحسنة التي تدفع بالمتلقي لقبول ذلك التّأليف أو النسيج.

2- اصطلاحاً:

إنّ الحديث عن الأسلوب من حيث ضبط مفهوم شامل له قد غصت به الأبحاث، وتناوله كثير من الدّارسين، لذلك لا جدوى من الإفراط في تعريف الأسلوب ولا تقسيماته وخصائصه، فقد كفانا مؤونة البحث في هذا المجال علماء اللّغة السابقون، وإنّما الذي ينعقد عليه الاهتمام في هذه الوريقات البحثية هو دراسة علاقة البلاغة بالأسلوب ومعرفة نقاط الافتراق الالتقاء فيما بينهما، وعلى الرغم من ذلك سنعرض بعضاً من تعريفات الأسلوب.

أ. لدى العلماء العرب القدامى:

اهتم النقد العربي القديم من القرن الثاني للهجرة بقضية الأسلوب ولعلّ المتأمل في هذا مصطلح يدرك بيسر أنّه من المصطلحات التي نالت اهتمام العلماء العرب القدامى، وهذا ما نستشفه من خلال ما خلفه لنا من إرث في مصنّفاتهم التراثية العربية.

ورغم هذا الاهتمام إلّا أنّنا شهدنا اختلاف آراء الباحثين القدامى في تحديد مفهوم الأسلوبية، بحيث جعلوها مرتبطة بالثالث الشهير؛ فنلغي من يعدّ مفهومها ذات صلة بأسلوب الكاتب والبعض يخص به المتلقي ومنهم من يجعله من لبنات النص الأساسية.

وقد انقسم العرب القدامى في دراستهم لمفهوم الأسلوب إلى قسمين اثنين، فمنهم من صرح بهذا المصطلح في كتابه من بينهم: ابن قتيبة (ت276هـ)، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) استعمله مرّة واحدة، السكاكي (ت626هـ)، وحازم القرطاجني (ت684هـ) ذكره في مواضع متعدّدة وتعتبر فترته مرحلة نضج مصطلح الأسلوب، ونجده في فصل -صناعة الشعر- من مقدّمة ابن خلدون. ومنهم من تعاملوا مع هذا المصطلح دون الإشارة إليه بهذا المسمى، وإنّما عمدوا على ذكر مجموعة من المفاهيم الدالة عليه ومن بينهم: الجاحظ (ت215هـ) أقدم المهتمين بخصائص الأسلوب زيادة على ابن منظور -كما أشرنا آنفا- ابن طباطبا العلوي (ت370هـ)، أبو هلال العسكري (ت395هـ).

ورغم هذه الدراسات الوفيرة التي تزخر بفيض غزير من المعارف التي أرسّت أسس علم الأسلوب، غير أنّ الدراسات التي لاقت صدًى كبيراً حول هذا العلم تعود لنخبة من علماء العرب القدامى فنجد شيخ البلاغة الجاحظ يُعدّ من أقدم المهتمين بتباين درجات الأداء الكلامي (اللغوي)؛ كونه أسهب الحديث عن مستويات الكلام في مواضع مختلفة في مصنّفه البيان والتبيين، وقال: "أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإنّ المعنى إذا اكتسب لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم دلاً مُتَعَشِّقاً، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملاً"¹⁷؛ صاحب البيان كثيراً ما ينبّه على ضرورة ترتيب الألفاظ وربطها بمعانيها حتى يُفَقَّن المتحدث بحسن كلامه، وتعتري المتلقي مشاعر الافتتان فتجذبه لقبول النص، وهذا ما تنهض عليها الأسلوبية كونها تمكّن المبدع من أخذ مسالك الانزياحات والانزلاقات اللغوية للارتحال بالمتلقي من المؤلف إلى غير المؤلف.

والتأمّل في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) يدرك بيسر أنّ القضايا التي طرحها تتوافق مع ما توصّلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة؛ كونه تفتّن لمواضيع متشعبة لازالت تشغل بال الدرسين والباحثين في مجال اللسانيات عامة والأسلوبية خاصة.

وبالعودة إلى نظرية التّظّم لعبد القاهر الجرجاني التي نالت قسطاً وافراً من الدراسة، ندرك أنّ معالمها تنهض على ما تصرّح به الأسلوبية في العصور المتقدّمة الحديثة؛ فنجد شيخ البلاغة ينوّه في مواضع متعدّدة من كتابه على قضية الأسلوب حينما عرّج على نظم الكاتب لكلامه وحسن رصف ألفاظه ومعانيه؛ فربط الأسلوب بالحمولة المعرفية واللّغوية والتعبيرية للكاتب ليتمظهر ذلك الرّبط في عمليّة التّأليف للنصوص.

يتبنى شيخ البلاغة فكرة تباين الكلام والأسلوب بتباين منازل المتلقين؛ ويتحقّق ذلك بتوظيف مختلف الظواهر اللّغوية التي تخدم فكرة التفاوت والتباين كالتقديم والتأخير والحذف والذكر والإضمار، والاستعارة، والمجاز، والتشبيه... وغيرها، فجمالية الأسلوبية تكمن في تلاحم كلام الكاتب بحسن تأليفه لكلماته ومعانيه لينتج لنا عدولاً نصياً يتماشى والتفاوتات الخاصة بالمستمعين والمتلقين.

ب. لدى العرب المحدثين:

أما النقاد العرب المحدثون فقد انشغلوا بتأصيل الدرس الأسلوبي العربي، ونلّفوا من بينهم أحمد شايب (ت1398هـ)¹⁸ الذي أسهب الحديث عن هذه القضية من خلال مصنّفه الأسلوب، وقَدّم لنا مفاهيم عدّة للأسلوبية مسّت الثالوث الشهير؛ والمتأمل لتعريفاته المتعدّدة نلمح أنّه جمع في مفهومه للأسلوبية بين الفن، وطريقة الكتابة، والصورة اللفظية التي نعبر بها عن المعاني¹⁹

وبالرجوع إلى جهود عبد السلام المسدي بخصوص الأسلوب نلمح أنّه جمع بين الرّؤى اللسانية الغربية الحديثة والأصالة التراثية العربيّة بنقله لأهم المصطلحات الأسلوبية الغربية إلى اللّغة العربيّة من خلال مصنّفه الأسلوبية والأسلوب الذي يعدّ رائداً في هذا المجال.

إنّ المسدي هو أول من استعمل مصطلح الأسلوبية وله الفضل في ترويجه في الدرس اللساني اللّغوي العربي، كما درس هذا المصطلح من كل جوانبه وقَدّم لنا زخماً معرفياً ضخماً حول الأسلوب والأسلوبية.

نجدّه يتحدّث عن هذه القضية في مواضع مختلفة ومتعدّدة في كتابه، بتقديمه لنا تعريفات عميقة تحمل دلالات تتوجب من القارئ أن يعمّق النظر فيها لتحليلها واستخراج ما تحمله في طياتها من مفاهيم تتماثل والأسلوبية الغربيّة، فعرفها بقوله: "تعرّف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعيّة لإرساء علم الأسلوب"²⁰.

فبعد تفكيكه لمصطلح الأسلوبية وتقديمه لمقابلاته في اللاتينية من stylistics، stylistique وأوجد له تسمية للدلالة عن هذا العلم science du style علم الأسلوب.

والمقام لا يسمح لنا بذكر كل ما توصل إليه العلماء العرب القدامى والمحدثون فيما يخص الأسلوبية، فما تمّ ذكره هو لمحة وجيزة عن جهود العرب وما خلفوه لنا من دراسات ونتائج تثبت وجود ملامح الدرس الأسلوبي في التراث العربي.

كما لا يفوتنا أن نرجع عن جهود الغرب في مجال الأسلوبية خصوصاً أنّ مصنفاتهم تعد بمثابة الرافد والمرجع للدرس الأسلوبي.

ج. الأسلوب والأسلوبية لدى الغربيين:

هي كلمة من أصل لاتيني "Stilus" والمقصود بها الريشة، وقد تعدّدت استعمالات هذه الكلمة منذ الحضارات القديمة فنجدها في اللغة الإغريقية "Stylos" وتعني العمود، ثم تطورت وانتقلت هذه الدلالة إلى مفهوم آخر يرتبط بطريقة الكتابة، ففي العصر الروماني وردت للدلالة على اللغة التي يستعملها البلغاء والخطباء، ولا تزال هذه الدلالة عالقة تحت مسمى "Style".

أولى اليونانيون القدامى عنايتهم بالأسلوب وفرضوا على الكاتب الالتفات له والعناية به عند كتابته وتأليفه لمصنفه، وجعلوا الأسلوب قضية تخص علاقة الكاتب بالأثر الأدبي وما يحمله من مضامين ومعاني دالة.

وبالرجوع إلى أرسطو نلغيه يهتم بالبلاغة ويربطها بالأثر الذي تخلّفه في نفسيّة المتلقي من إقناع وقبول العمل الأدبي، وهذا ما يحيلنا إلى أهميّة الأسلوب في بلوغ الغايات المرجوة والمقاصد التي تصبو إليها الخطابات.

والم تأمل في الدراسات الغربية يدرك أنّها تزخر بفيض وافر من التعريفات المتعلقة بالأسلوب، فقدّم كل عالم تعريفات تختلف باختلاف تشريحه واهتماماته، فنلّف بيّفون Buffon (1707م). (1788م)، يقول: "الأسلوب هو الرّجل"²¹، وفاليري "الأسلوب سلطان العبارة"²²، وريفاتير Michel Riffaterre (1924م. 2006م): "الأسلوب قوّة ضاغطة تتسلط على حاسية القارئ بواسطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها"²³ الملاحظ

مما سبق أن التعريفات تتفق أنّ الأسلوب خاصيّة لغويّة، تلزم المبدع على حسن تحيّر ألفاظه وعباراته لإقناع وامتاع القارئ المتلقي.

أدرك علماء الغرب الجمالية التي يضيفها الأسلوب على الخطاب كونه يحزّره من المعيارية ليرتحل بالمتلقي إلى فضاء أرحب؛ أيمن الدلالات السطحيّة المباشرة إلى فضاءات عميقة متشعبة تحكمها الانزياحات فتدفع بالمتلقي إلى البحث عن المقاصد المرجوة من هذا العدول النصّي، لذلك تمّ تدارس مصطلح الأسلوبية من طرف العلماء الغربيين كون الأسلوبية تخاطب الوجدان وتأثر في المتلقي.

ثالثاً. علاقة البلاغة بالأسلوبية:

اهتمّ هنريش بليث بالعلاقة القائمة بين البلاغة والأسلوبية وأسهب الحديث حول هذه القضية في مصنّفه الموسوم: البلاغة والأسلوبية وأكد في مقدمة كتابه أن العلاقة بينهما تشتدّ تارة وتوسع أخرى ثم صرّح بأنّ البلاغة لا تكاد تنفصل عن الأسلوبية بحيث تجمعهما علاقة تكاملية تراكميّة لأنّ ما توصّلت إليه البلاغة تنهض عليه الأسلوبية، كون البلاغة تهتم بالأسلوب إذ تعتبره موضوع دراستها. وقد تبني المسدي رأي بليث كونه ذكر "أنّ الأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في الوقت نفسه" ²⁴، فالمتمعّن في العلاقة القائمة بين البلاغة والأسلوبية يدرك ذلك التداخل والتكامل الموجود بينهما، لذلك ارتأيت أن اختصر العلاقة بين العلمين كالآتي:

1. أوجه التلاؤم:

- النقطة الأولى التي يشترك فيها علم البلاغة والأسلوبية هي موضوع البحث، بحيث أنّ كلاهما يهتمان بالأدب وبدراسة المنظومة اللغويّة في النصوص الأدبيّة والخطابات، لاستجلاء الوظيفة الفنية والتعبيرية وكذا النّفسية للغة في النصوص الأدبيّة.

فالمبدع يستعين بالوسائل اللغوية الفاعلة وما تحمله من إيجازات وتأثيرات جمالية لإنتاج نصّه، فيحسن تحيّر السمات الأسلوبية وصرّفها لبيان وظائفها وإمتاع المتلقي، كونهما تُحدث عدولا يدفع بالمتلقي لتلذذ ما يتلقاه، ولا يتمّ ذلك إلّا بالعلاقة التكاملية القائمة بين الجانب الأدبي والجمالي واللغوي اللساني، وهذا دليل على استحالة الفصل بين البلاغة والأسلوبية كون الأولى تستدعي وبقوة حضور الثانية.

-ومن بين النقاط المشتركة بين البلاغة والأسلوبية أنّ كلاهما نشأ من علم اللّغة ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً باللّسانيات.

– ما نلمحه في مفهوميهما فكلاهما ينصان على مطابقة الكلام لمقتضى الحال وهذا ما يُعبّر عنه في الأسلوبية بالموقف.

– البلاغة فن من الفنون التي يهتدي إليها المبدع حينما ينتج عمله الأدبي، وهي بمثابة الأداة التقديرية التي تقوم الأسلوب الفردي وهذا ما تنهض عليه الأسلوبية المعاصرة.

– كل منهما يستخدم أدوات البلاغة كالاستعارة والمجاز والكناية لتعزيز الفهم حول كيفية بناء النصوص الأدبية والخطابات، وجعل التواصل والكلام أكثر فاعلية وتأثيرا في المتلقي.

إنّ هذه التقاط المشتركة دليل على وجود علاقة رصينة بين البلاغة والأسلوبية، ورغم هذا ظلّت هذه القضية من بين القضايا التي تُحدث جدلا واسعا في مجال الدراسات اللغوية، فكلّ ينظر لهذه العلاقة على حسب اعتقاداته وميولاته وتشرباته، ولكن ما يتفق عليه معظمهم أنّ البلاغة هي بمثابة الوريث الشرعي للأسلوبية المعاصرة.

2. أوجه التباين:

رغم العلاقة الوثيقة بين علم البلاغة والأسلوبية إلّا أنّنا نجد الكثير من العلماء يقرّون بوجود اختلافات بينهما، فالأسلوبية وليدة البلاغة القديمة، فهي لم تلغ ما توصّلت إليه البلاغة القديمة ولكنها جعلته بمثابة الركيزة الأساس للنهوض بعلم جديد، لأنّ ما تمّ التوصل إليه في الدراسات السابقة سيُعين على ظهور دراسات لاحقة وهذا ما نسميه بالتكامل بين العلوم.

لذلك حاولت الأسلوبية تجاوز القصور الذي وُجد في البلاغة وهنا اتّضحت جليّا الفروقات بينهما، وهي كالآتي:

– المعيارية تعتبر من أول الاختلافات التي برزت بين البلاغة والأسلوبية، كون العلم الأول معياري محض يرسل الأحكام التقييمية، ويرمي إلى تعليم مادته، وموضوعه: بلاغة البيان²⁵، هذا ما يعاكس الأسلوبية لأنها تنأى عن كل ما هو معياري وليست لها غاية تعليمية.

– تهتم البلاغة بنوعية خاصة من الكلام وهو الكلام الأدبي عامة والشعري خاصة، باختلاف الأسلوبية التي تتعامل مع كل أجناس الكلام.

– يعتبر المبدع والمتلقي من القضايا التي اختلفت فيها البلاغة عن الأسلوبية، فإهمال البلاغة للمبدع والمؤثرات الخارجية أدى إلى فقدان البلاغة لهدفها النفعي²⁶ الإقناعي، بحيث وجّهت تركيزها على

المتلقي والاكتفاء بتحسين الصياغة الشكلية للخطابات "فتم إهمال حالته النفسية وقت كلامه، ووضع الاجتماعي الذي قد يترك آثارا واضحة على سمات أسلوبه"²⁷، بينما الأسلوبية تجعل من الكاتب وظروفه الاجتماعية والنفسية القطب الرحى في العملية الإبداعية كونه حامله اللغوية المشحونة بالمؤثرات الخارجية تدفعه للإبداع وصياغة نصوص مميزة تنير فضول المتلقي.

- الاختلاف في التأصيل فالبلاغة تأثرت بالنحو والمنطق وبالمناهج اليوناني الفلسفي الأرسطي، بينما تأثرت الأسلوبية بالدراسات اللسانية الحديثة واعتبرتها اللبنة الأساسية في تكوين هذا العلم.
- البلاغة تهتم بالوحدات الصغرى في الجملة الواحدة وتفككها لمعرفة جمالية هذا التركيب، أما الأسلوبية فتركز على البنية الكلية للنص بتدريس معانيه والتوغل في دلالاته العميقة لبلوغ المقاصد.
- الاختلاف في نظرتهما للغة، فالبلاغة تعتبر اللغة شيئا ثابتا في حين أن الأسلوبية تتميز بالديناميكية فتبحث عن تلك التغيرات والتطورات التي تطرأ على اللغة وهذا ما ينعت به: الأسلوبيات الحركية²⁸.
- في ختام هذا المقال، يمكننا أن نستخلص أن رغم التباين الحاصل بين البلاغة والأسلوبية في المنهج والأهداف، إلا أنهما يجتمعان في سعيهما لفهم وتحليل النصوص الأدبية، ويتشارك كلاهما في الاهتمام بالاستجابة الجمالية والنقدية للنصوص اللغوية، بحيث فهم نقاط التلاقي والتناهي بينهما يفتح لنا آفاقاً جديدة لدراسة النصوص والخطابات، مما يعزز من تقديرنا لجماليات اللغة وعمقها.

الهوامش:

- ¹ - القاموس المحيط، الفيروزآبادي محمد مجد الدين بن يعقوب الشيرازي، ج3، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م، ص100.
- ² - ينظر مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ط، 1979م، من باب -الباء واللام والعين- ص302.301.
- ³ - ينظر تاج العروس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، نح: مصطفى حجازي، مراجعة: اللجنة الفنية من وزارة الإعلام، سلسلة التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، ج الثاني والعشرون، 1985م، ص444.
- ⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص447.
- ⁵ - الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد البجاوي وأبي الفضل إبراهيم، ط2- القاهرة، سنة 1971م، ص52.58.
- ⁶ - العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن الرشق القيرواني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط4، د.ت، ج2، ص245.
- ⁷ - أبو محمد عبد الله بن المقفع (106 - 142 هـ) (724 م. 759 م) مفكر فارسي وُلد مجوسياً لكنه اعتنق الإسلام، عُرف بذكائه وكرمه وأخلاقه الحميدة، وكان له سعة وعمق في العلم والمعرفة ما جعله من أحد كبار مثقفي عصره، حيث تتكون ثقافته من مزيج من ثلاثة جوانب: العربية، الفارسية واليونانية، وكان ملماً بلسان العرب فصاحةً وكاتباً ذو أسلوب، فنال من كل هذه الثقافات نصيباً وافراً

- من الفصاحة والبلاغة والأدب، من بين مؤلفاته: الأدب الصغير. نشره «طاهر الجزائري»، رسالة الصحابة، كليلة ودمنة. للاطلاع أكثر: المقفع، عبد الله بن. الاثار الكاملة: لابن المقفع. دار الارقم بن ابي الارقم - بيروت / لبنان. 3
- ⁸ - البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ج1، الطبعة 7، 1998م، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ص115
- ⁹ - المصدر نفسه، ص115
- ¹⁰ - ينظر رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج3، ط1، 1979م، مكتبة الخانجي، مصر، ص63.
- ¹¹ - ينظر البلاغة، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق رمضان عبد التواب، ط2، 1985م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، ص
- ¹² - ينظر الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص58.
- ¹³ - الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، شرح وتنقيح: محمد عبد المنعم الخفاجي، ج1، ط3، سنة 1993، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة - مصر ص42.43.
- ¹⁴ - ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا زَبْطٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الآية 59 من سورة الأنعام.
- ¹⁵ - لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشادلي، دار المعارف، القاهرة - مصر، د.ت، المجلد الثالث، مادة: سلب، ص2058.
- ¹⁶ - تاج العروس، محمد مرتضى الحسني الزبيدي، ج3، مادة: سلب، ص71.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص254.
- ¹⁸ - أحمد شايب ولد سنة (1314هـ بمصر وتوفي 1398هـ)، كان مدرسا في الابتدائية ثم انتقل للتدريس بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول، وهو شاعر وأديب له قصائد منشورة في صحف ودوريات عصره، من بينها: إليك يا والد، كما ألف عدة تراجم (زهير بن أبي سلمى، الإمام علي بن أبي طالب...) وله عدة مؤلفات أهمها: الأسلوب، دراسة بلاغية وتحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أصول النقد الأدبي وغيره.
- ¹⁹ - ينظر الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، يوسف أبو العدوس: دار المسيرة: عمان - الأردن: 2007م: ص26
- ²⁰ - عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس: 1977م، ص33.
- ²¹ - حميد آدم تويني، فن الأسلوب عبر العصور الأدبية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان - الاردن - ط1. 2006م، ص18.
- ²² - عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، تحقيق: حسن حميد، مجد لاوي للنشر والتوزيع، ط2، 2002م، ص: 44.
- ²³ - يوسف أبو العدوس، الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007م، ص35.
- ²⁴ - عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، د-ط، د-ت، ص44
- ²⁵ - يوسف أبو العدوس، الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007م، ص73
- ²⁶ - هذا ما ذكره تودوروف فيما يخص اهتمام البلاغة بأنها قد أضاعت هدفها النفعي المباشر.
- ²⁷ - يوسف أبو العدوس، الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص63.
- ²⁸ - ينظر المرجع السابق، ص76

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. القاموس المحيط، الفيروزآبادي محمد مجد الدين بن يعقوب الشيرازي، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م.
2. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999م. الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، عمان-الأردن، 2007م
3. الأسلوب والأسلوبية، عبدالسلام المسدي، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1977م.
4. فن الأسلوب عبر العصور الأدبية، حميد آدم تويني، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان - الاردن - ط1. 2006م
5. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ط، 1979م.
6. تاج العروس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، نح: مصطفى حجازي، مراجعة: اللجنة الفنية من وزارة الإعلام، سلسلة التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، 1985م.
7. الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد البجاوي وأبي الفضل إبراهيم، ط2- القاهرة، سنة 1971م.
8. العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن الرشيقي القيرواني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط4، د.ت
9. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة -مصر، الطبعة 7، 1998م،
10. البلاغة، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة -مصر، ط2، 1985م.
11. الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، شرح وتنقيح: محمد عبد المنعم الخفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة- مصر ط3، سنة 1993.
12. لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة- مصر، د.ت.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. القاموس المحيط، الفيروزآبادي محمد مجد الدين بن يعقوب الشيرازي، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م.
2. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999م. الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، عمان-الأردن، 2007م
3. الأسلوب والأسلوبية، عبدالسلام المسدي، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1977م.
4. فن الأسلوب عبر العصور الأدبية، حميد آدم تويني، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان - الاردن - ط1. 2006م
5. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ط، 1979م.
6. تاج العروس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، نح: مصطفى حجازي، مراجعة: اللجنة الفنية من وزارة الإعلام، سلسلة التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، 1985م.
7. الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد البجاوي وأبي الفضل إبراهيم، ط2- القاهرة، سنة 1971م.
8. العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن الرشيقي القيرواني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط4، د.ت

9. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، الطبعة 7، 1998م،
10. البلاغة، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، ط2، 1985م.
11. الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، شرح وتنقيح: محمد عبد المنعم الخفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة - مصر ط3، سنة 1993.
12. لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشادلي، دار المعارف، القاهرة - مصر، د.ت.